



Uluslararası Sempozyum

International Symposium

المؤتمر العالمي

3-5 Ekim - October 2004 Istanbul / Turkey

٣-٥/١٠/٢٠٠٤ استانبول - تركيا

المؤتمر العالمي السابع
لبديع الزمان سعيد النورسي

ممارسة حياة ايمانية فاعلة

في سلام ووثام في عالم متعدد الثقافات
من خلال رسائل النور

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

Ekim 2004

الترقيم الدولي

ISBN: 975-269-043-2

شركة نسل للطبع والنشر والتوزيع

تكامل الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي

الدكتور محمد خروبات
رئيس شعبة الدراسات الإسلامية وأستاذ
التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض - مراكش
المغرب

1 - مقدمة :

نحاول من خلال هذا العرض بحث موضوع : (تكامل الأخلاق عند بديع الزمان سعيد النورسي)، وهو موضوع يدور على محاور أساسية نبرزها في صيغ استفهامية ومقابلات ضدية كالآتي :

1 - البحث عن العلاقة بين النظرة الخلقية والسلوك الأخلاقي عند بديع الزمان سعيد النورسي، إلى أي حد تطابقت نظراته الأخلاقية ودعوته إلى الأخلاق مع سلوكه الشخصي وممارساته الخلقية في حياته...؟
هل هناك تقاطعات في سلوك النورسي؟، هل عاش فترة من الوقت على خلق ، ثم عاش فترة أخرى على خلق آخر؟

2 - البحث عن العلاقة بين نظراته الخلقية ودعوته إلى إصلاح النفس البشرية من جهة والواقع المعيش من جهة أخرى...هناك قضايا خلقية جاء بها القرآن إلى البشرية، وهناك قضايا خلقية أخرى فرضها الواقع...هل من تمييز عند النورسي بين تلك الأخلاق وهاته الأخلاق؟

3 - البحث عن علاقة دعواته الخلقية بالقرآن الكريم والسنة المطهرة...هل الأخلاق عند النورسي مستوحاة من هذين الأصلين، أم أنها انطباعات فكرية وآراء فلسفية وتأملات نظرية؟

4 - البحث عن علاقة الأخلاق التي يدعو إليها بعالمية الإسلام وشموليته وواقعيته على الدوام.

هذا كله يبحث باستحضار المقابلات الضدية التالية :

- فالبحث عن العلاقة بين النظرة الخلقية والسلوك الخلقى يقابلها انفصام حاد بين الدعوة إلى الأخلاق وعدم التخلق بها في الحياة العامة.

- والبحث عن العلاقة بين الدعوة إلى الأخلاق والواقع يقابلها انفصام مدهش بين الأخلاق والواقع.

- والبحث عن علاقة الأخلاق بالقرآن والسنة تقابلها علاقة ضدية تتجسد في علاقة الأخلاق بالفلسفة، بحيث تصبح الفلسفة مصدرا للأخلاق في ثقافتنا المعاصرة .

- والبحث عن علاقة الأخلاق بعالمية الإسلام وشموله الدائم تقابلها علاقة أخرى تدفع بأخلاق الأمة إلى الارتقاء في أحضان ثقافة العولمة ومسلقيات النظام الدولي الجديد. هذه هي الاشكالات المحورية التي يدور حولها هذا العرض، قد تكون هي دوافعه، أو حوافزه أو مقاصده أو محاوره الأساسية ، وكيفما كان الحال فهي ظواهر عامة حركت بيدع الزمان للكلام، وحركتنا نحن أيضا لإبراز هذا الكلام وتأمله وتحليله ، وقد تسنى لنا ذلك بطريقتين : الأولى تقويمه بالمنهج المطلوب والثانية تقديمه على الوصف المرغوب، وقد تحقق لنا هذا بخطّة منهجية تضم ثمانية عناصر وهي :

1 - مقدمة.

2 - مفهوم تكامل الأخلاق.

3 - التكامل والإصلاح، أية علاقة؟

4 - عناصر التكامل، وهي محددة في خمس ارتباطات.

1-4- ارتباط الأخلاق بالمؤلف.

2-4- الارتباط بالقرآن الكريم.

3-4- الارتباط بالسنة النبوية.

4-4- الارتباط بالواقع.

4-5- ارتباط الأخلاق برسائل النور.

5 — الوظائف الأخلاقية للرسائل .

6 — من (التكامل) إلى (القوة).

7 — (الأخلاق العملية) ومستلزمات التكامل.

8 — خاتمة .

2 — مفهوم تكامل الأخلاق :

أ — يجب التفريق بين نوعين من (التكامل) بينهما تلازم، الأول (تكامل الذات)، والثاني (تكامل الموضوع)، نعي بالأسول: تكامل شخصية بديع الزمان سعيد النورسي، ونعي بالثاني تكامل نظرية الأخلاق عنده.

تكامل الشخصية يتوقف على " ذات الشخصية" المعنية، نعي أنه يتوقف على بديع الزمان نفسه، وتكامل النظرية الخلقية يتوقف على (فكر) للشخصية نفسها. ذكرنا هذا لأن التصور الإسلامي لا يفرق بين العلم والعلم، بين الذات والموضوع، بين الشخص والفكر... كلاهما يشكل في المعرفة الشرعية وجهها واحدا وإن كان النظر في الشخصية من جهة المعرفة والأحوال أسبق.

إن الوجه الواحد المشار إليه سلفا هو التكامل في نوعه الثالث، وهو النوع المركب من النوعين السابقين، وهو الذي تشير إليه الآية الكريمة: (ياأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون، كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون)¹ .

الاكتمال يعني الإتمام، والكمال يعني التمام، وطريق الكمال الاكتمال، وطريق التمام الإتمام²، وقد اقترنا في آية واحدة من قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً)³، إكمال التشريع وإتمام النعمة أعطيا الإسلام الذي ارتضاه الله للبشرية دينا، ومن هذا (الدين) متح بديع الزمان سعيد النورسي.

ب — نريد أن ننقل خطاب بديع الزمان النورسي من حالة رصد الأفكار المبتوثة والمفرقة في ثنايا (رسائل النور) إلى حالة مجموعة تسهل إدراك المعنى، حيث ينتظم المفرق داخل إطار كلي اخترنا أن يكون هذا الإطار هو (الأخلاق)، واخترنا أن نربط بين الجزئيات برابط منهجي، هذا الرابط هو المتجسد في فقرات ومضامين هذا العمل،

وانتظام هذه الأجزاء داخل الكل هو ما نعبر عنه بـ (التكامل)، كل جزئية تكمل الأخرى لغرض إتمام الصورة العامة التي نريد رسمها، ويبقى الشخص الوحيد المقصود بهذه الدراسة هو بديع الزمان النورسي، ويبقى التراث المستهدف بهذه الدراسة هو الرسائل ، كما يبقى المقصد من هذه الدراسة هو المساهمة بما تحمله الرسائل من أفكار لمعالجة الآفات الأخلاقية ولإصلاح رذائل القيم.

هذا كله لا يتم إلا بالتكامل الذي حددنا مفهومه وإلا أوقع في النقيض، إذ نقيض التكامل الإنحلال والتفكك، انحلال الأخلاق وتفكك القيم، وهما آفتان تغزوان المجتمعات الإنسانية في العصر الراهن.

3 - التكامل والإصلاح : أية علاقة؟

ماذا يريد بديع الزمان بمآته الأخلاق المتكاملة؟ من يقصد؟ ولماذا؟

لما كان شعار بديع الزمان هو القرآن الكريم كان حريا بنا نظفر بالجواب من قوله تعالى: (ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله)⁴ .

توجه بديع الزمان إلى واقع بشرية هذا القرن، القرن الذي تصدعت فيه القيم وترزعزت فيه المبادئ وانهارت فيه الأخلاق انهيارا شاملا، وغابت - على إثر ذلك - إنسانية الإنسان، الإنسانية التي أرادها الإسلام للإنسان، فأطلت رسائل النور على الإنسانية الغافلة لتؤدي وظيفة الإصلاح والتقويم والتوجيه والإرشاد نحو الصراط الذي أراده الله للبشر، ولذلك فهي تؤدي هذه المهمة في أحلك الحالات وأرهبها، وفي أخرج الأوقات وأشدّها ، فكانت خدمتها خدمة إيمانية وتربوية بأسلوب أخاذ يفهمه الجميع، ويمكن للمرء كيفما كان أن يلحظ هذا في أسلوب ومعاملة الطلبة المعتكفين على هذه الرسائل، والذين يطلق عليهم (طلبة النور)، وهو وصف سام، رقيق ودقيق، لا يتصف به إلا من تحلى بأخلاق هذه الرسائل، وعمل بما جاء فيها من وصايا وأخلاق وفضائل⁵ ، مع السعي في البث والنشر والدعوة.

4- عناصر التكامل، وهي محددة في خمس ارتباطات:

قبل أن نتكلم عن صلة الأخلاق برسائل النور يجدر بنا أن نحدد ارتباط رسائل النور بعناصر أربعة أساسية، ذلك أن تحديد صلة الرسائل بالعناصر الأربعة المتقدمة سيؤدي بنا

إلى التوقف عند صلة الأخلاق بالرسائل، وستفضي بنا الدراسة إلى استكمال البحث في نظرة بديع الزمان التكاملية إلى الأخلاق.

4-1- ارتباط الرسائل بالمؤلف: الرسائل مرتبطة بصاحبها، وصاحبها هو بديع الزمان النورسي، كاتبها ومؤلفها، وهو صاحب التجربة الخلقية المزدوجة من أمرين: الأولى فكرية والثانية عملية، قدم بديع الزمان هذه التجربة هدية في صيغة وصية لطلبة النور، ولكل متعلم يريد أن يتخلص من عفونة الرذائل الجارفة. إن سر نجاحه في وصاياه يكمن في الارتباط الذي يتجلى في حقيقة العلاقة بين نظراته الأخلاقية والسلوك التربوي لديه، لم يكن يدعو إلى خلق يعمل بخلافه، أو يقرر سلوكا في فترة ثم ينقضه في أخرى... إن البحث في هذا الارتباط من شأنه أن يجلي حقيقة (تكامل الأخلاق) لديه، تكامل يتضح حين يدفع بديع الزمان بالرسائل في مجاري السنوات والقرون بصفات أساسية ومحددة:

- فهي معجزة من معجزات القرآن الكريم.
 - وهي إحسان من إحسانات الرحمة الإلهية.
 - وهي بذلك تتجاوز مؤلفها وكاتبها لتصبح في ملك كل فرد يريد إصلاح نفسه وأمته.
 - ولذلك فهي هدية غالية، وأعطية نفيسة.
- يقرر هذا في عبارة مشرقة مفعمة بأفكار نيرة مضيئة فيقول: (لذا، لا يمكن أن يسند تأليفها إلى رجل عاجز نصف أمي قضى حياته بين المنفى والسجن ، وتحت رقابة سلطات الدولة، وتنفيها الناس من حوله بالدعايات المغرضة، فمثل هذا الرجل لا يمكن أن يكون مالكا لها، ولا يمكن أن يفتخر بها لنفسه، فهي ليست نابعة من ذكائه ومهارته، إنما هي معجزة من معجزات القرآن الكريم ، وإحسان من إحسانات الرحمة الإلهية، وكل ما في الأمر أن هذا الرجل وآلآفا من أصدقائه قد مدوا أيديهم إلى تلك الهدية الغالية النفيسة فوق الخيار عليه في نشرها)⁶.

هذا عن الارتباط الأول، أما الارتباط الثاني فهو:

4-2- الارتباط بالقرآن الكريم رأساً: وهذا ما أشار إليه في العبارة السابقة التي تم الاستشهاد بها في الارتباط الأول، ما فتئ يذكره ويكرره في غير ما مرة ، فالرسائل وما حوت هي (برهان باهر للقرآن الكريم، وتفسير قيم له، وهي لمعة براقعة من لمعات إعجازه المعنوي، ورشحة من رشحات ذلك البصر، وشعاع من تلك الشمس، وحقيقة ملهمة من كنز علم الحقيقة، وترجمة معنوية نابغة من فيوضاته...)⁷ تلك بعض تعابيره رحمه الله التي يحاول بها تأكيد ارتباط الرسائل بالقرآن الكريم، فالقرآن إذا هو مصدرها، ثم يقيم مقارنة بينها وبين مختلف التأليفات في مختلف الفنون ليدلل على مصدريتها القرآنية فهي (ليست كالمؤلفات الأخرى التي تستقي معلوماتها من مصادر متعددة من العلوم والفنون، فلا مصدر لها سوى القرآن، ولا أستاذ لها إلا القرآن، ولا ترجع إلا إلى القرآن...)⁸ .

لم لا تكون كذلك ومؤلفها أدار وجهه على شيخ الطريقة الصوفية، واستبدل به شيخاً واحداً هو (القرآن الكريم) .

إن الارتباط المتحدث عنه هنا لا يعني توحيد الرسائل مع القرآن، أو تقديمها عليه، أو جعلها بديلاً عنه كلاً فالقرآن قرآن لا يضاف إليه شيء بعدما حفظ نزولاً واكتمل تنزيلاً،

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)⁹ ، وهو كلام الله الذي لا يتقدم عليه شيء: (يأيتها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله)¹⁰ ، فالرسائل هي تفسير له ودلالة عليه وإشارة إليه، وترجمة معنوية لأحكامه ومعانيه، وقد اكتست هذه الصفة لأنها مستوحاة منه، ومتأثرة به، فقد سئل الشيخ مرة عن: أيهما أفضل: حفظ القرآن أم استنساخ الرسائل؟ فقدم الحفظ على الاستنساخ، ثم لما فرغ اتبع استنساخ الرسائل لحفظ القرآن،¹¹ يقول: (لهذا كله أقول: إن الرسائل ليست ملكي ولا مني بل هي ملك القرآن)¹² .

إذا كان هذا عن القرآن فما نصيب السنة النبوية من هذا الارتباط، والاسلام هو قرآن وسنة؟ .

الجواب في الارتباط الثالث .

4-3- ارتباطها بالسنة النبوية: السنة لا تفارق القرآن ولا تنفصل عنه، ومن طلب الاتصال بالقرآن بلا سنة فقد أحدث القطع وأوقع الفصل.

ارتباط الرسائل بالقرآن يعني ارتباطها بالسنة أيضا، وهذا ارتباط يأتي في الدرجة الثانية، فهو مثل مرتبة السنة تجاه القرآن، وارتباط رسائل النور بالسنة يكشف عن ارتباط صاحبها بسنة النبي ρ . وللسنة النبوية دور كبير في صياغة الأخلاق في خطاب بديع الزمان سعيد النورسي، لقد أعانت السنة وساعدت على تحصيل ثروة من المصطلحات الخلقية بمفاهيمها وأساليبها، وتنوع صورها وأشكالها في رسائل النور، والحديث يتسع كثيرا إذا أردنا بحث دور السنة النبوية في تكوين الأخلاق الإسلامية، وفي تأسيسها وتهذيبها وتصحيحها، لكننا نختصر الكلام بالقول: إن رسائل النور متحت من هذا الجانب كثيرا، لأنها لما اهتمت بالقرآن توجهت إلى السنة النبوية، وحين يتكلم بديع الزمان سعيد النورسي عن الأخلاق من سنة النبي ρ فذلك من موقع قوله تعالى: (وإنك لعلی خلق عظیم)¹³ ليوجه إلى ما يشهد لهذه الآية من حديث عائشة رضي الله عنها حين تصف خلق النبي ρ بقولها: (كان خلقه القرآن)¹⁴.

هذا كله فتح الباب لبديع الزمان ليتكلم في لمعاته عن النبي ρ الذي هو المثال والأمودج، يقول: (لما كان الرسول ρ قد خلق في أفضل وضع وأعدله، وفي أكمل صورة وأتمها، فحركاته وسكناته قد سارت على وفق الاعتدال والاستقامة، وسيرته الشريفة تبين هذا بيانا قاطعا وبوضوح تام بأنه قد مضى وفق الاعتدال والاستقامة في كل حركة من حركاته، متجنبنا الإفراط والتفريط)¹⁵.

هذا عن وضع الارتباط بالقرآن والسنة، لكن ماذا عن كيفية؟

الكيفية التي ترتبط بها الأخلاق عند النورسي بالقرآن الكريم والسنة النبوية تظهر فيما يلي:

أ - أن بعض الكليات الخلقية في رسائل النور لها صلة بآية قرآنية أو بحديث نبوي شريف من حيث المعاني وإن اختلفت الألفاظ.

ب - أن بعضها يكون جزءا من آية أو طرفا من حديث.

ج - أن بعضها - وهو كثير - مستوحى من تعاليم القرآن والسنة، وهذا الاستيحاء يأتي على أساليب ثلاثة:

- إما بأسلوب يعارض العمل بما نهى الله عنه
- وإما بأسلوب يعارض تعطيل ما أمر الله به.
- وإما بأسلوب يعكس اجتهاد بديع الزمان، بحيث تكون أفكاره مستوحاة من روح الشريعة الإسلامية.

د - وبعضها يأتي تفسيراً لآية كريمة ، أو شرحاً لمتن حديث نبوي.

4-4- الارتباط بالواقع:

تتحلى واقعية الأخلاق في رسائل النور في النواحي الآتية:

- أ - خطابه الأخلاقي المتضمن للكليات الخلقية هو خطاب شمولي يتجه إلى كل إنسان، إلى الشيوخ والشباب والطلبة والتلاميذ والأساتذة والمعلمين ، كما يتجه إلى النساء والرجال كأزواج ، وإلى النساء كبنات وعجائز وعانسات... الخ
- ب - إن رسائل النور بثروتها الخلقية تخرج المنتسب إليها والمطلع عليها من رذائل الأخلاق إلى فضائل أخلاق الإسلام، ومن مشاين الحضارة المادية المعاصرة إلى مكارم الشيم في أعلى مستوياتها، وفي أرفع معانيها...
- ج - تدفع رسائل النور بأخلاق الإسلام نحو عولمتها الحقة، لقد كون الإسلام في التاريخ البشري عولمة من نوع إيجابي تجلت عملياً بكل المواصفات الموضوعية والنفعية على المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي والأخلاقي - وحين نهارت قوة المسلمين وتوارت جاء دور عولمة جديدة، عولمة منافية لعولمة الإسلام، ومناقضة لتوجهاته ، فرسائل النور تبرز معالم عولمة الإسلام، وتجلي خصائصها ومقوماتها على المستوى الخلقية.. وقد اختار بديع الزمان لتحقيق ذلك اللغة التي تليق لهذا العصر، والأسلوب الذي يصلح لواقع هذه الأمة، ويكفي رسائل النور واقعية أنها تدفع بالمسلم المعاصر إلى التحلي بأصوله الأخلاقية، ويكفيها أنها تعارض وتجاهه وتصارع في منازلة صعبة (الأخلاق الطبيعية)¹⁶ ، التي هي قوام عولمة النظام الدولي الجديد، يفصح بديع الزمان بشيء من هذا فيقول: (إن أفضل منقذ ثبت بالتجربة ، من ظلم هذا العصر المريض الغادر المشؤوم ومن ظلماته الدامسة هو النور الذي تشعه (رسائل النور). بموازينها الدقيقة وموازناها السديدة، يشهد على صدق هذا أربعون ألف شاهد)¹⁷ .

4-5- ارتباط الأخلاق برسائل النور:

سواء علينا أقلنا ارتباط الأخلاق برسائل النور أو العكس فالوجه واحد. إن من يطالع رسائل النور يجد أن بديع الزمان يحاول أن يجعل من هذه الرسائل مصدرا للأخلاق والتقوى والورع، فهو يذكر دائما أنها دالة على الخير وموجهة للفضيلة، ومساعدة على التدرج في سلم المكارم، وهذا كله يقوي الإيمان ويزيد فيه. كتب تحت عنوان: (رسائل النور حصن الإيمان الحصين) كلاما رائعا ما أحوجنا إلى تذوقه، لقد بين أن العصر الذي نعيشه هو عصر صراع بين نوعين من القيم: قيم الكفر وقيم الإيمان، وكل منهما يستند في مواجهته للآخر على آخر الحصون، قيم الكفر لها حصنها. وقيم الإيمان لها حصنها، ولتوضيح ذلك وبيانه أحال على رسالة الآية الكبرى التي توضح هذه الظاهرة وضوحا كاملا، ثم ضرب مثلا في حالة وقوع حرب عظيمة، حيث كل فئة تمد جانبها، وجانب الكفر لا يدع وسيلة إلا ويستعملها في سبيل تشتيت قوة أهل الإيمان المعنوية، ومعلوم أن القوة المعنوية لأهل الإيمان هي قوة احتياطية سائدة عظيمة، حتى إذا أوشك العدو أن يقضي على هذه القوة جاءه البشير يذكره بنقطة الاستناد العظيمة، و في نهاية المطاف يجعل النورسي الرسائل هي نقطة الاستناد هاته.

5-5- الوظائف الأخلاقية لرسائل النور.

لكي تكون رسائل النور هي (نقطة الاستناد) يحدد لها بديع الزمان وظائف أخلاقية مهمة، نسوقها كالاتي:

- أ — إنها خير معين وأجل مساعد لكل مسلم يائس يريد النجاة بنفسه من حريق الرذائل، يشبهها النورسي من هذا الوجه ب(الخضر) عليه السلام¹⁸.
- ب — تسمو رسائل النور على معارف الشرق والغرب لسبيين: الأول أنها لم تستمد من بضاعة معلومات الشرق وعلومه، والثاني أنها لم تعتمد على بضاعة فلسفة الغرب وفنونه.. إنها سمت بسبب واحد هو أنها ارتبطت بالقرآن الكريم.
- ج — تتوجه رسائل النور بمنظومتها الأخلاقية إلى إصلاحات كلية تتوجه صوب التخريبات العامة، فهي بذلك ترمم القلعة العامة للإنسانية كلها، وذلك بالتوجه إلى قلبها العام وإلى وجدانها الكلي... هذا الوجدان الذي مال إلى الفساد وتخصص فيه.. كل من

دخل إلى ساحة هذه الرسائل إلا ودفعت به كفرد نحو الجماعة، وكجزء نحو الكل، وهذا يعود على المرتبط بالرسائل بما سماه النورسي (خيرات كلية جماعية)¹⁹ .

د - استطاعت الرسائل أن تحل أسراراً كثيرة مضمنة في المعاني التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، وذلك بالشرح والتفصيل والبيان مع الكشف والتحليل، ومن هذه الأسرار أسرار الأخلاق والقيم .

هـ- إنها تقف حائلاً ضد التخريب، وعائقاً ضد الفساد ، من الصغير إلى الكبير، ومن البسيط إلى المركب، ومن الجزئي إلى الكلي... وذلك بالرد والنقد والتصحيح والتصويب، لقد جعلها النورسي خصماً لدوداً للمعاندين، وعدواً للجاحدين والماكرين لسبب واحد هو أنها تقف ضد طموحاتهم وتعرقل مشاريعهم، ثم إنها تجلي حقيقة القرآن لبشرية هذا العصر بأرقى صورة وبأحسن أسلوب .

بهذه الوظائف تكون رسائل النور قد قدمت خدمة رفيعة ما فتئ بديع الزمان يشير إلى هذا النوع من الخدمة²⁰ ، مبيناً في النهاية أن الرسائل تضمن لقارئها وللمطلع عليها (عبادة فكرية من نوع فريد)²¹ .

5- من (التكامل) إلى (القوة):

يعطي النورسي لمفهوم التكامل مغزى آخر يضاف إلى ما سبق تحديده، بيان هذا المغزى أن سبب الانهزام أمام الآخر يكمن في أن المسلم يتقدم جندياً في ساحة الوغى من دون أن يكون (متكامل) في حرب الدفاع والمواجهة أمام جماعة (متكاملة) كل واحد منها يكمل صاحبه الآخر، يطلب النورسي من المسلم أن يتقدم (متكامل)، أو يقدم جندياً (متكامل) لمواجهة الجماعة النقيض، وانتصاره مرهون باكتمال يشبه اكتمال الجماعة (ليكون كل جندي من جنودك - يقول - في حكم جماعة ، ويمثابة شخص معنوي يستمد معنوياته من الدوائر المحيطة به)²² .

صدق بديع الزمان ، لقد كان جنود محمد ρ كل واحد منهم مكتمل باكتمال جماعة من المشركين، اجتمع فيه ما تفرق في كثير منهم، سواء في القوة المادية أو في الإيمان بالقضية ، أو في المروءة، والأخلاق والقيم، ولذلك حاز المؤمنون النصر، وظفروا بالعدو. ومن هذا المعيار فكثرة المسلمين مع غياب اكتمال شخصيتهم يجعلهم في حكم الأقلية، ويصبحون أكثرية ذات شوكة قوية إذا تحققت اكتمال كل فرد منهم ولو كان

عدددهم قليلا،) ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاعت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) ²³ . غير أن الله عز وجل بدل حال النقص بحال الاكتمال فقال: (ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)، ²⁴ وقاعدة هذا كله هو قوله تعالى : (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) ²⁵ ، فغلبة الفئة القليلة لا تكون إلا بالاكتمال الذي تحدد معناه سلفا، وإلا حصلت الهزيمة، لا من الفئة القليلة فحسب بل حتى من الكثرة التي لا تكون سوى زبد أو غشاء، (فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ²⁶ .

الاكتمال أساس القوة، والقوة أساس النصر، ذلك هو سر كسب المعركة عند النورسي، وهو سر كشفت عنه رسائل النور، إن الرسائل حققت انتصارات متوالية، انتصارات التأثير الذي يبدو غير اعتيادي ، وشحنة هذه القوة ترجع إلى جاذبية القرآن الكريم لا إلى شخصية المصنف، شحنة كلمات الرسائل هي تصديق لا تصور ، وإيمان لا تسليم، وتحقيق لا تقليد، وشهادة وشهود لا معرفة، وإذعان لا التزام، وحقيقة لا تصوف، وبرهان ضمن الدعوى لا ادعاء ²⁷ .

6 - الأخلاق العملية ومستلزمات (التكامل):

من مستلزمات (التكامل) أن تكون الأخلاق عملية لا نظرية، وهذا الجانب توفر في أطروحة النورسي في مجال الأخلاق، فالأخلاق عنده هي التي يبنى عليها العمل، وهي من هذا الوجه تختلف عن الأخلاق كما هي عند الفلاسفة، فهو يتجه بها إلى ما ينفع على صعيد العمل والممارسة، لذلك كان كلامه عن الأخلاق في صلتها بالعمل أقوى من كلامه عن أي شيء آخر، وهو ما أطلقنا عليه (الأخلاق العملية) .

تحتاج (الأخلاق العملية) إلى معلم ومتعلم، فالمعلم هو الموجه والمرشد، والمتعلم هو الموجه والمرشد ، والمعلم هو المربي والملقن، والمتعلم هو المربي والملقن، وهذا ثابت في أصل الحلقة قبل أن يكون من ثوابت هذه (العملية)، فهناك خالق ومخلوق، وهناك نبي وقوم، وهناك أهل العلم من المفكرين والباحثين والدارسين وهناك العامة الذين يستفيدون علم هؤلاء ويعملون به ، ليرشدوا ويصلحوا، وينطبق هذا الوصف على علم الأخلاق بصفة عامة كما ينطبق على رسائل النور بصفة خاصة، ولما كانت رسائل النور تضم

ثروة من الأخلاق والقيم في صيغتها الإنسانية العملية فإن صاحبها - بديع الزمان - ظهر فيها بمظهر الأستاذ الناجح، الذي لقن مادة الأخلاق إلى كل إنسان ولا سيما إنسان الإيمان، لكن ماذا عن عدم الاستجابة لدعوته الإصلاحية من هذا الجانب؟ وماذا لو تنكر الناس وتراجعوا، وانطفأت جذوة شوقهم إلى أخلاق الرسائل وتوجيهاتها وإرشاداتها؟ هل هذا النقص في المعلم أم في المتعلمين؟ وفي كل الأحوال ما موقف المعلم من هذه الظاهرة؟

لا يسمح بديع الزمان لنفسه أن يتيه وسط ركام من الكلام لعلاج هذه الظاهرة بل يؤصل الكلام ليريح ويسترخ، يقول: (والحال أن سيدنا الرسول ρ وهو الأستاذ الأعظم ومقتدى الكل، والراشد الأعلى قد اتخذ الأمر الإلهي (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)²⁸ ، دليلاً ومرشداً له، فكلما أعرض الناس عن الإصغاء وتولوا عنه ازداد جهادا وسعيا في سبيل التبليغ، لأنه علم يقينا أن جعل الناس يصغون ويهتدون إنما هو من شؤون الله سبحانه وفق الآية الكريمة (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)²⁹ ، فما كان يتدخل ρ في شؤونه سبحانه)³⁰ .

لننظر كيف ربط الأخلاق العملية ب (التبليغ)، وفي النص دلالات قيمة على الأخلاق في صيغتها العملية من مثل الإشارة إلى الإقتداء، والريادة العليا، والدليل والإرشاد والهداية الخ، وهذه كلها من مهمة المربي، وتنحصر في (التبليغ)، ثم لننظر كيف ربط ظاهرة الإعراض بالمشيئة الإلهية، ثم قبل هذا وبعده ننظر كيف أصل دعوته الإصلاحية حين ربطها بدعوة محمد ρ التي ترتبط هي بدورها بتوجيهات القرآن الكريم وإرشاداته.

لكن هل تتوقف (الأخلاق العملية) عند بديع الزمان مع بديع الزمان أم أنها ستستمر بعده؟ وكيف ذلك؟

الشخصية تتوقف مسيرتها في الزمان بالموت، لكن الفكر لا يتوقف ولو مات صاحبه، ولا يتوقف من الفكر إلا ما لا ينفع، وما لا ينفع منه متوقف حتما ولو استمر ألف عام، أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض إلى أن يرثها الله ويرث من عليها، وحديث: (إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله من الدنيا إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)³¹ واضح في الباب . .

هذا ما فكر فيه بديع الزمان نفسه، إن توقف العملية التربوية المشمولة بقيم وفضائل أخلاق الإسلام كما قدمتها الرسائل مع بديع الزمان فيه محو لكل جهوده، وقضاء نهائي على رغباته وطموحه وتلك هي الخسارة الكبرى حين يموت الإنسان ويموت معه عمله ، لذلك تسائل قائلاً : (ترى أيؤدي طلاب النور بعد وفاي تلك المهمة بدلا مني وفي هذا الزمان الرهيب؟) فكان جوابه أن طلاب النور هم الذين يواصلون المهمة، وقد رأى برهان ذلك في حياته، وتضاعف ذلك بعد مماته.

7 - خاتمة :

بسطنا في مقدمة هذا العمل الإشكال العام للموضوع، وشرعنا في عرض المعاني الأساسية التي قصدناها بـ (تكامل الأخلاق)، فتحددت لنا المعاني وانضبطت لنا المفاهيم، ثم ربطنا ذلك بالمقصد والهدف المتمثل في الإصلاح والتوجيه والإرشاد والتربية... التي تدخل كلها في عنصر (الأخلاق)، تحقق ذلك بالمدافعة حيناً وبمنازلة الضد والنقيض حيناً آخر.

انتقلنا بعد ذلك إلى الكلام على عناصر التكامل الخمسة التي حددناها في الارتباطات الخمسة، فارتباط الأخلاق بالمصنف يضيف عليها الصبغة البشرية، وهذا يبين أنه كلما زادت معرفتك ببديع الزمان جيدا كلما زادت معرفتك بـ (الأخلاق) التي يدعو إليها جيدا.

وارتباطها برسائل النور يضيف عليها الصبغة العلمية، إنها تمت بـ (العلم) وفي (العلم)، فهي من العلوم الإنسانية ومتوجهة إلى الإنسانية كلها. وارتباطها بـ (القرآن الكريم) و بـ (السنة النبوية) يجعل منها أخلاقاً شرعية، ذات مصادر ربانية، سامية ونبيلة.

وارتباطها بـ (الواقع) ينفي عليها صبغة التجريد والميتافيزيقية البحتة، فهي ليست غيبية بإطلاق ولا مادية واقعية بإطلاق، إنها غيبية واقعية، ومثالية مادية، وبذلك اكتست صبغة الشمولية والعالمية والتوازن.

وحين انتقلنا بعد هذا إلى تحديد الوظائف الأخلاقية للرسائل مع بيان الوسائل والطرق الضرورية المؤدية إلى تحقيق تلك الوظائف مثل الشخصية المعنوية وتحقيق الأخلاق

العملية... تكون الصورة الكاملة لموضوع (تكامل الأخلاق عند بيدع الزمان) قد اكتملت. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

الهوامش

- 1 - سورة الصف ، الآية 2 - 3 .
- 2 - مستوحى مما ضبطوه لغة، انظر القاموس المحيط للفيروز ابادي - ص: 1362 - مؤسسة الرسالة، الأولى، تحقيق مكتب تحقيق التراث.
- ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس - 139/5 - مادة (كمل) - تحقيق عبد السلام هارون - دار الجيل - بيروت - لبنان .
- 3 - سورة المائدة الآية : 4 .
- 4 - سورة هود الآية 88.
- 5 - انظر وصف طالب النور في مرشد أهل القرآن ص: 84 .
- 6 - مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان ، ص: 78- من كليات رسائل النور - 6 - ترجمة إحسان قاسم الصالحي، سوزلر للطباعة والنشر - الأولى 1998 .
- 7 - مرشد أهل القرآن ...ص : 81 .
- 8 - المرجع السابق .
- 9 - سورة الحجر الآية 9 .
- 10 - سورة الحجرات الآية 01.
- 11 - انظر الملاحق - كليات رسائل النور 7 - ص: 123 .
- 12 - مرشد أهل القرآن ص: 91 .
- 13 - سورة القلم ، الآية : 4 .
- 14 - أخرجه البخاري في الأدب المفرد - باب من دعا الله أن يحسن خلقه - ص: 116 رقم الحديث 309 . وأبو داود في السنن - كتاب الصلاة -
- 41/2 رقم 1342، والبيهقي في السنن كتاب الطهارة 499/2.
- 15 - مرشد أهل القرآن ، ص: 95 ، وراجع السنة النبوية مرقاة ومنهاج - كليات رسائل النور - شركة سوزلر.
- 16 - للوقوف على المغزى الحقيقي ل (الطبيعة) ومعطياتها، انظر كتابنا(خلاصة في نقد الفكر الطبيعي، قراءة في كتاب الطبيعة مع مقالة في بناء الإنسان عند بيدع الزمان سعيد النورسي) - الأولى - المطبعة الوطنية بمراكش - المغرب.
- 17 - مرشد أهل القرآن ...ص: 224 .
- انظر مرشد أهل القرآن ...ص: 86 بنفس المعطيات السابقة.18.
- المرجع السابق ، ص: 103 . 19
- من ذلك مثلا ما كتبه في الملاحق تحت عنوان: (مكاسب العمل لرسائل النور)، انظر ص: 288 . 20

-
- مرشد أهل القرآن ، ص: 137 . 21
 - المصدر السابق ، ص: 85 . 22
 - سورة التوبة الآية : 25 . 23
 - سورة التوبة الآية : 26 . 24
 - سورة البقرة الآية : 247 . 25
 - سورة الرعد الآية : 19 . 26
 - 27 - وفي الموضوع شاهد من حديث النبي ρ يقول فيه: (يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: بل إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن...) أخرجه أبو داود في السنن حديث رقم : 4297، وأحمد في المسند 278/5 . وأبو نعيم في الحلية 182/1 .
والحديث في سلسلة الأحاديث الصحيحة لناصر الدين الألباني 683/2 رقم 958 .
 - 28 - سورة النور الآية : 52 .
 - 29 - سورة القصص الآية : 56 .
 - 30 - انظر مرشد أهل القرآن... ص: 110 .
 - 31 - أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه - باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته - 3 / 1255 ، رقم 1631 ، وأبو داود في السنن ، كتاب الوصايا - باب ما جاء في الصدقة عن الميت 3 / 117 رقم 2880 .